وعاشوا في مناخ فكري حضاري يسوده العلم والعلمانية ، فانهم لا يقلقون وينزعجون من ، ولا هم يعون ، متناقضات تفكيرهم ، او متناقضات هذا التفكير مع مقاصدهم ، او مع الاوضاع التي تحيط بهم ، ان كانت هذه المتناقضات منسجمة مع نوازعهم وآمالهم . ميل الفكر الانساني الى تحقيق مصالحة ومطابقة بين مفاهيم وقواعد سلوك متناقضة بغية طمأنينة نفسية يحققها على حساب المنطق والعقل يشكل دعامة أساسية لهذا الفكر . ولكن الفكر الثوري الذي يفترض فيه التوجيه والقيادة يفترض فيه أيضا القدرة على الوعي الموضوعي لهذه المتناقضات فلا يتجاهلها بل ينبه اليها ويحذر منها ويدل على طريق في تجاوزها. فكر يعجز عن ممارسة هذا الدور لا يستحق ان يكون فكرا ثوريا . الفكر المقاوم عجز عن هذا . ويعني هذا من ناحية اخرى انه يجب ان لا نقع ضحية « عقلانية » صرفة ، فننسى ان الانسان ليس حيوانا منطقيا وعقلانيا محضا ، بل هو ايضا ككائن عضوي واجتماعي ، حيوان لا عقلاني ولا منطقي . فتفكيره مشوه دائما بمختلف المشاعر والميول والمصالح ، وعندما يواجه افكارا وحقائق علمية تناقض مصالحه وعواطفه ومواقفه العقائدية والسياسية ، فهو غالبا ما يتسرع الى رفضها ونبذها دون ان تؤثر في سلوكه . فالافكار والوقائع والحقائق الموضوعية التي تناقض هذا السلوك السياسي والاجتماعي والعقائدي ، تدجن عادة بأكثر الطرق لا منطقية بغية مطابقتها لهذا السلوك . وفي كثير من الاحيان تشوه الى درجة لا تبقي من الاصل شيئا يذكر . تاريخ الفكر الانساني حافل بهذه الظاهرة التي تتسرب اليه من جميع الجوانب . ولكن الفكر الثوري يعني الوعي . والوعي الحاد المرهف ، للواقع ككل وفي جميع جوانبه ، والعمل مع ما يتكشف عنه هذا الواقع من حقائق موضوعية. فكر يعجز عن ذلك يكون عاجزا عن ممارسة دوره في سيادة الواقع وتوجيهه نحو مقاصده الثورية. الفكر المقاوم ، مع الاسف عجز عن هذا الوعي . طرح المقاومة كحرب شعبية تحريرية غايتها تحرير فلسطين من « النهر الى البحر » يكشف بوضوح ان الفكر المقاوم الذي يعبر عن هذا الموقف هو فكر لا يزال يمارس العقلية الشعائرية ، والثورية اللفظية ، والمنطلقات التبشيرية التي قادتنا الى ١٩٤٨ والى ١٩٦٧ ، كما يكشف ان الاطارات العقلية والنفسية اللاواعية التي تحدد اتجاه هذا الفكر هي ، في الواقع ، اطارات مشتركة بينه وبين بكوات وبشوات عام ١٩٤٨ . الحرب الشعبية ليست نوايا ذاتية ، ليست مقاصد اخلاقية ، ليست التزامات ثورية . انها اكثر من ذلك بكثير . انها ايضا اوضاع موضوعية ، علاقات طاقات ، قوى ، اتجاهات ، امكانات موضوعية تتفاعل معها وتتحد بها تلك النوايا والمقاصد .

كما في اقتباساتنا الحضارية الحديثة التي نأخذها خارجيا وعفويا دون ان نعي تماما مضمونها وفحواها ومتطلباتها ، ودون ما يقابلها من تحولات ذاتية يجب ان ترافقها ، كذلك ايضا في مفهومنا للمقاومة ودورها. فقد اخذنا بعض المفاهيم والصور المألوفة التي رافقت حروبا شعبية اخرى ، ولكن دون صلة بينها وبين اوضاعنا ، ودون اي ادراك لهذه الصلة ومقوماتها . فهناك حروب شعبية ناجحة ، اذن سوف نقوم بحرب شعبية تحرر فيها فلسطين «من النهر الى البحر». بدلا من بناء نظرية الارض المحتلة ، ما تسمح به ، وما لا تسمح به ، هذه الاوضاع . فان المقاومة رضخت للابتزاز الثوري الذي سلطه على عنقها بعض «المفكرين»(٣) الذين تخصصوا «بالامية الفكرية» فلم تستطع ان ترى خصوصية هذه الاوضاع الموضوعية، وعجزت ان تبني ، بالتالي ، استراتيجيتها وتكتيكها ومواقفها في ضوء هذه القراءة ، فكانت النتيجة التخبط الذي رافقها حتى الان والمآسي التي نتجت عنه ولا تزال .

المقاومة لا تستطيع ان تتهرب من المسؤولية ، فمسؤوليتها كبيرة ، وهي لا تستطيع ان تبرر الخطأ ، فالخطأ فادح ، وهي لا تستطيع ان تتبرأ من الذنب ، فالذنب واضح وأليم . كان عليها ان ترفض هذا السحب التبشيري الذاتي ، الابتزازي، على واقعها للنموذج الصيني والجزائري والفيتنامي. ولا يزال عليها الان وبسرعة ان تضع نهاية لذلك. ان الاوضاع الموضوعية لا تسمح لها ، لا عن قريب او بعيد ، ولا بأي شكل من الاشكال ، ولا بأعوام وأعوام من الاعمال البطولية ، ان تتحول الى حرب شعبية على غرار الصين والجزائر او فيتنام. بدلا من ان تأخذ ذلك بالاعتبار فترى خصوصية الاوضاع التي تعمل فيها فتخلق لها نظرية عسكرية تنسجم معها ، تجاهلت هذه الخصوصية . ولم

---

(٣) للتوسع راجع مقال الاستاذ ناجي علوش في مجلة مواقف عدد ٨ .